



وقائع من سيرة الرسول ﷺ

د. بليغ حمدي إسماعيل

قال تعالى: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ (القلم: ٤) هكذا تحدث الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات عن رجل يسكن الأرض، سيد الخلق أجمعين محمد ﷺ، مخبراً عن أخلاقه الكريمة الراقية، ويأتي شهر ربيع الأول من كل عام ليذكرنا بمولد الحبيب محمد ﷺ. والحديث عن البدايات حديث ذوشجن وسحر خاص، فلقد ولد النبي ﷺ في فجر الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول الموافق العشرين من شهر أغسطس سنة ٧٥٠ ميلادية، ولأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنوشروان خسرو، وذلك في المكان المعروف بسوق الليل في الدار التي صارت تدعى بدار محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج بن يوسف.

قدمت مكة تلتمس الصغار لرضاعتهم فما من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك إنما كانت النساء المرضعات يرجون المعروف من أبي الصبي، فكانت النسوة تقول: يتيم!! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكره ذلك.

وهكذا كان حال الطفل الرضيع محمد ﷺ، وما أشق هذه الحال، تأبى المرضعات أن تأخذه، كونه يتيمًا، واليتم كما نعلم ونعي ونفطن ضعف ومذلة وقصور حيلة، ولكن يؤكد علماء نفس الطفل المعاصرين أن تعرض الطفل لمثل هذه الأحوال من شأنه أن يجعله أكثر صلابة وتحملاً لما يتعرض له من محن في المستقبل. وما أشبه الليلة بالبارحة في المقدمات والنتائج، إن حال قلب النبي ﷺ بين العرض والرفض أشبه بحاله حينما عرض نفسه على القبائل بالطائف.

ونجد الله دائماً مع حبيبه محمد ﷺ، فنجد حليلة السعدية تقول في بلاغة موجزة لزوجها الحارث: والله

وقد أدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران أم الهادي والرشيد فجعلته مسجداً يصلي فيه الناس وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب. وتذكر كتب التاريخ المعروفة أنه ﷺ نزل على يد الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف، فهي قابله، رافعاً بصره إلى السماء، وكانت أمه ﷺ تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده النساء الحوامل من ثقل وألم.

ولأن الله سبحانه وتعالى يرعى عباده المصطفين الأخيار، وينظر إليهم نظرة عطف ومودة ورحمة تقف عند واقعة جليلة نعتر بها نحن المسلمين في شتى بقاع الأرض، ونحرص أن نسردها لصغارنا وكبارنا على السواء، وهي واقعة مرضعة النبي ﷺ حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية وتكنى أم كبشة.

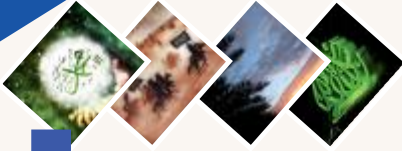
وتحدث حليلة السعدية أنها خرجت من بلدها مع زوجها الحارث بن عبدالعزى، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. وتروي حليلة بنفسها أنها حين

حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال

السنة النبوية الشريفة جزء من الوحي كما أخبرنا سبحانه وتعالى ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ (النجم: ٣-٤) ومن هنا كانت السنة ركناً أساسياً في فهم أمور الدين وأحكامه بعد القرآن الكريم، كما كان لها أثر كبير في نشر الثقافة الإسلامية وبناء العقل المسلم بناءً سليماً استطاع من خلاله معالجة قضايا الناس ومتطلبات حياتهم ضمن الثوابت والأصول التي لا يمكن التشكيك في مصداقيتها، وإذا كان أعداء الإسلام قد وقفوا عاجزين مبهورين أمام القرآن الكريم، فإن منهم من حاول الالتفات إلى سنة النبي ﷺ ونصب المكائد والدسائس حولها لهدم الإسلام من خلالها بالتشكيك في صحتها، ولكن أنى لهم ذلك والله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ دينه ورد كيد العابثين والحاقدين إلى نحورهم ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩).

لقد حاولنا من خلال هذا الملف الذي نضعه بين أيدي قرائنا الكرام التركيز على سيرته ﷺ في مختلف جوانب الحياة للاسترشاد بها واستلهام سماتها وتنسم نضجاتها، فقد كان ﷺ المثل الأعلى والنموذج الإنساني الكامل، والاقتداء به يؤهلنا بإذن الله لاستعادة دورنا الإيجابي الرائد في المسيرة الحضارية المعاصرة.. والله الهادي إلى سواء السبيل.

التحرير



فشقاه، فاستخرجنا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلنا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه».

وكعادة المستشرقين من أعداء الإسلام وخصومه، يتناولون هذه الحادثة بمنظور أكثر غرابية، فالمستشرق فنيكولسون في كتابه «تاريخ أدب العرب»، ومير في كتابه «حياة محمد» وغيرهما يرون أن هذه نوبة صرعية، وهذا بالطبع مردود عليه، فلم تشاهد علامات الصرع على حبيبنا محمد ﷺ طول عمره، وإذا كان الصرع كحالة مرضية يصيب صاحبه بحالات عصبية متوترة وقلق وتوتر دائم، فكيف هذا والنبي ﷺ هو النبي، والزوج، والقائد، والمصلح، والأب، والمربي، والمرشد، والنذير، وكل هذه الأدوار قام بها النبي ﷺ في وعي وجلد شديدين؟

إن المستشرقين، يبذلون جهداً بشرياً مقصوراً غير عادي للنيل من النبي ﷺ، وأظن أنني قد وفقت اللفظ في (بشراً) لأن قدرة الله وقوته أبقي وأعز وأجل. كل هذا ولابد أن نعي حال هذا الصبي، الذي يتعرض لمثل هذه المواقف العصبية، وغيرها مما ورد في كتب السيرة النبوية، مثل وفاة أمه صغيراً، كل هذا أيضاً من شأنه أن يقوي ساعد الصبي على ما ستخبره الأيام اللاحقة من عوارض، وهو ما أشار إليه جده عبدالمطلب بقوله: «دعوا ابني فوالله إن له شأنًا».

والحكمة من هذا الشق هو الزيادة في إكرامه وإمداده ﷺ وتقويته وإعداده، ليتلقى ما سيوحى إليه بقلب قوي سليم متين في أكمل الأحوال. وشق الصدر لأنه حادث جلل غيبي يلزمنا التصديق به أولاً، والوقوف عنده طويلاً بالدرس والتحليل لاستنباط الفوائد والحكم منه، فشق الصدر من جنس ما ابتلى الله به الذبيح وصبر عليه، بل هذا أشق وأجل، لأن تلك



شق الصدر نوع من أنواع الابتلاء .. والمستشرقون ادعوا أنه صرع وهو قمة التكريم

بيض فأضجعاني وشقاً بطني فالتمسنا فيه شيئاً لا أدري ما هو، فقالت حليلة: فرجعنا به إلى خباتنا، وقال أبوه الحارث: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به.

والناظر لسياق الحدث السابق يتبين أن حليلة وزوجها قد أحبا الصغير حباً جماً، ويظهر ذلك بوضوح في قولها «أبوه» مرتين، وهذا خير دليل على تعلقهما بهذا الصغير. والرسول ﷺ يخبرنا عن حادثة شق الصدر وما تحملها من دلائل ذات معنى، حينما سأله نفر من أصحابه فقالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاني فشقا بطني، واستخرجنا قلبي

إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه، فقال زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. وهكذا كان، بركة في الناقة الشارفة المسنة، والمطعم والمشرّب والحال للطفل والمرضعة وابنها وزوجها حتى قال لزوجته: أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن.

ما يهمننا في هذه الواقعة أن يدرك الناظر لها كم هو أسعد حالاً ومقاماً هو وأولاده وذووه، ولعله يدرك النعمة التي من الله

عليه بها، وهي نعمة الأمومة والرضاعة من صدر أمه، فهذا هو حبيبنا محمد ﷺ تقول عنه مرضعته مقالته تلك: وإنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، وكيف بحال أبنائك وأنت تطمئن عليهم كل مساء، وترى ابتساماً أهمهم وهي تحتضن صغارها، وكيف تتظر لحال صغارك وأنت تقرأ قول حليلة: فما من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وكلمة تأبى تعني الرفض الشديد، ألا يجعلنا ما سيق ذكره أن نزداد عشقاً وولعاً ومحبة برسولها الجميل ﷺ.

وتعد حادثة شق الصدر للرسول أثناء وجوده بمضارب بني سعد من إرهاصات النبوة الأولى، ونذير خير لما سيحدث لهذا الصبي الصغير من اصطفاء واختيار له. وعود على بدء لحليلة السعدية التي تخبرنا عن القصة كاملة.

فتقول: عندما رجعنا بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه إذ أتانا أخوه يشد، فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقا بطنه، فهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً ممتنعاً وجهه، فالتزمته والتزمه زوجي، فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب



الله ﷻ للفظ الجلالة «الله» قد هز كيانه الغلام، وهدده مشاعره، الأمر الذي جعله متقبلاً ومستعداً للدخول في الإسلام، لاسيما وأنه من أهل الكتاب.

ومن أبرز معالم رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف واقعة إسلام الجن. حقاً، إنه اليقين بالتوحيد لرب العالمين، لقد انفرد الله سبحانه وتعالى بعبادة الإنس والجن له، بل لقد انحصرت مهمتنا على الأرض في عبادة الله وحده، لا نشرك به شيئاً.

والواقعة تفيد أنه لما انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة، قام بجوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ، فلما فرغ من صلاته، ولوا إلى قومهم مدبرين منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما استمعوا إليه من تلاوة الرسول ﷺ. وقد قص الله تبارك وتعالى نبأهم على النبي في سورة الأحقاف، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩، ٣٠).

هؤلاء نفر من الجن يتلقون دعوة الرسول ﷺ في صلاته ودعائه دون أن يعلم بوجودهم، وأصبح اسم محمد تهفو به قلوب الجن، وليس الإنس فقط، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاء إلى الله. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ١-٣).



الجن تلقوا دعوة الرسول ﷺ وبلغوها قومهم دون أن يعلم بهم

ودعوا عداساً فقالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي. قال له: ويحك يا عداس، لا يصرفتك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

والقصة السابقة وردت في أكثر من نص سابق، ومعظم النصوص التي سردت الواقعة السابقة، تحدثت عن صبر رسول الله ﷺ على الشدائد، وتحمله الصعاب التي واجهها وهو يدعو القبائل للإسلام، وبعضها تحدث عن فضائل الإسلام في الطعام، كالتسمية قبل تناول الطعام والشراب. والذي يمكن أن نستخلصه من هذه الواقعة الطيبة أن الذي لفت انتباه الغلام الصغير في حديث رسول الله ﷺ هو ذكره للفظ الجلالة «الله»، وهو أمر مستغرب على أهل هذه البلاد، التي لا تعرف سوى اللات، والعزى، وهبل، ومناة، وغيرها من الأصنام التي لا تقيد ولا تنفع، ولا تسمن من جوع، ولا شك أن نطق رسول

معاريض وهذه حقيقة، وما أحوجنا هذه الأيام أن تحدث لنا حادثة ولو معنوية لشق صدورنا المعتمة، إن حظ الشيطان منا عظيم في الآونة الأخيرة، في ظل الفتن والمغريات التي تنخر بنا ليل نهار، ولا راد لها سوى عصمة من الله.

وتتجلى الحكمة أيضاً من شق الصدر في القدرة على أن يمتلئ قلب الصبي الصغير إيماناً وحكمة وزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤيته شق صدره وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية،

ولذلك كان رسولنا ﷺ أشجع الناس حالاً ومقاماً، ولذلك وصف النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم: ١٧).

وهناك واقعة مهمة من وقائع السيرة النبوية ينبغي لنا جميعاً أن نسترجعها لأهميتها وجلها في سياق السيرة النبوية، فلما لجأ رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبه، رقاً له، فدعوا له غلاماً نصرانياً يدعى «عداساً»، وأمرهم أن يقطع عنياً ويذهب به إلى رسول الله ﷺ. ففعل عداس ما أمر به، ولما وضع العنب أمام رسول الله ﷺ قال له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه، قال: «بسم الله»، ثم أكل.

فتنظر الغلام في وجهه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال عداس: نصراني، وأنا من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»، فقال عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه.

وحينما علم عتبة بن ربيعة ورأى ما رأى من تقبيل الغلام لوجه ويد رسول الله ﷺ قال لأخيه: أما غلامك فقد أفسده عليك،